# بيت المقدس في حَيرة الصّمت

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

*

ابتسام أبو شرار
"بيت المقدس في حَيرة الصّمت"
(شعر)

*

الطبعة الأولى (2013)
جميع الحقوق محفوظة

*

الإخراج الداخلي
الريشة

*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.
All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

شعر

# ابتسام أبو شرار

## بيت المقدس في حَيرة الصّمت

دار الجندي للنشر والتوزيع

# الفهرست


إهداء ..... 7

أنشودة الفجر ..... 9

سنطوي الجراح ..... 20

اعتذار عن حبّ سرمديّ ..... 23

لنورك سيزيف يمتطي السّحاب ..... 29

نشيد الوداع ..... 37

بيت المقدس في حيرة الصّمت ..... 49

رسائل فوق التّلال ..... 59

سلام على المسافر ..... 72

موكب العلياء ..... 76

بأديم ترابه يحيا الإنسان ..... 82

زفاف الروح ..... 89

# الإهداء

إلى الّذين انبجست من ينابيع أوردتهم اثنتا عشرة عينًا عندميّة في صفاء التّراب، في موكب البحث عن الوطن في الوجود، والوجود في الوطن.

إلى الّذين انسابت دماؤهم، ورصفوا قلوبهم سابلة للعودة، ونحتوا مجاذيفهم من جناجين صدورهم، واشرأبّت نفوسهم في الوهاد إلى وطن الأعالي؛ فصعدوا على مرقاة دمائهم؛ ليبنوا على الأرض السّلام.

إلى الّذين تلتهمهم الأقدار، ويمضون بحكمها، وفي أرواحهم توق لا ينطفئ لشغف الدّيار المشتعلة بنار عشقهم.

إليهم أنثر حنين حروفي في سكون التّصوّف شفاءً لعطش الرّوح، وسغب الذّكريات.

# أنشودة الفجر

على شاطئ تتراقص موجاته ألما،

وخلف بحار تناثر شرعانها حمما،

وتقذف نيرانها

زهور الرّبى،

وفي ظلّ زيتونة

مباركة، ترتوي

شرايينها

دما، هبطت.

ومدّت يديها كمهد دفيء.

بشوق رنت لغد

وضيء.

أشارت بهمس وسقم، وتوق ووتن، ووجد وصبو، وكبر ووجم:

... ... ...

أشارت بصمتٍ:

وراء ابتسامة فجر يجيء.

ومع همسة حرّة

يجيء.

على دمعتي ثاكل،

على ساعدي فارس،

على كفّتي أمل،

على راحتي بطل،

على وجنتي حجر،

يجيء...

يضاحك أنشودة الفجرْ.

يرنّم أهزوجة الدّهرْ.

ويطوي حكاية غدر.

ويشدو:

أنا الأرض في شهر آذارَ،

والأرض في كلّ شهر.

وآذار أخصب كلّ الشّهور الخصيبة، والخصب أحمر،

تُبرعم أغصانه في أنامل عشتار،
عطاء مديدًا لكلّ الدّهور.

خديجة في دمها حملتني،
ومن عبق الرّوح، روح المتيّم في
حشا جسدي تخفق،
زمّلتني.
ونيران سخنين تضرى؛
لتحرق نار الدّخيل الّتي ألهبتني.
رجا في وريدي سرى،
وفي خفر روحه لثمتني.

أنا الأرض في
تراتيل آذارْ،
وآذار شهري.
رجاليَ مهري،
وحبّات عيني،

قلائد صدري.

ربيعيَ زهر دماء، يسيل بأوصال قلبي.

أنا الأرضْ

عروس حلاها لآلئ بحر.

أساورها

سلاسل قمح أرقّ، وأبهى من النّضرْ.

جدائلها من سنابل خضر.

غلائلها من قرنفلْ

وفلّ وزهر.

أكاليلها من نخيل، وشوك، وصبر،

تحاكي سيوف الصّلاحيّ،

تحطّم كلّ قيود المذلّة والأسرْ،

تفتّت أسطورة القهرْ.

على صخرة،

تصارع ظلمًا وضيما،

وتعلو قبابًا ورضما،

تجلّت،

تغنّي لعهد مضى.

تزفّ زنابق حمراء بيضاء، ترقص في طرقات الفضا.

تنادي على "محسن"،

و"خضرٍ"، و "خيرٍ"، فيعدو "الزّهريّ"،

يشي "نور شمس" وقار جدا.

تنادي على ثائر...

تنادي على خالد...

تنادي على فارس، فارس الشّهداء، ورمز التّحدّي لبغي العدى،

ورمز الرّجولةْ،

جنى السّؤددا.

وتهمس:

ستبقون أجنحتي الرّاقصةْ

على ذا المدى.

أكاليل غار، ثريّا نثار...

مشاعل نور، منابر عزّ...

أهازيج مجد، مواويل ثأر...

تهاويم عشق، أقانيم طهر...

أغاريد مرج، سرابيل فخر...

أناشيد حبّ، تراتيل صبّ...

ستغدون أقوى، ... وأقوى، ... ، وأصلب من

صنيع حمام الرّدى.

فأنتم فوارس ليلي،

وأنتم سبيل خلاصي،

على الأرض، في

أعالي السّماء تبيتون للخالقِ

قياما،

تخرّ جباهكمُ

ساجدةْ،

وتتّكئون على الأرائكْ،

تهبّ عيونكمُ

هاجدة.

أراكم نجومًا،

وفي عتمتي فرقدا،

ينير دروب الدّياجي،

يضيء صلاة خلاصي لحبّكمُ

معبدا.

فما دمتمُ

تئنّون في كبدي، لن تضيع دماؤكمُ

سدى.

لن تغيب رسومكمُ،

سيبقى زفيركمُ

لصوت الهزار صدى.

فلا تهنوا،

ولا تحزنوا،

وسيروا على وتر الهدي، وانتصروا للهدى.

أمام ستائر ليل بهيم،

وفوق وسائد صخريّة،

جثت.

وحطّت مهاد الجناحينْ،

ومدّت يديها بحزن، ... وصلّت.

تلت سورة، بحثت عن بنيّاتْ،

يعانقن وجه السّماءِ، هوين كجبهة فارسْ،

توسّدن مهجة فلاّحْ،

تزمجر غاضبة فوق صدرهْ،

وغبن عن الأرض دون مغيب الجذور.

...

بمعوله

رعاهنّ جدّي، ودقّ عروق الفؤاد لأهدابها وتدا، ومن الرّوح أينع ورد الجفون.

وعاهدها أنّ من أجلها كلّ شيء يهون.

فغارس أشجاره لا يخون.

أجل لا يخون.

وحين تفتّح في كفّتيه رحيق الغصون،

وأورق في فمه عود زيتونْ،

وجاد عطاء السّنين،

وحين ذرت،

رياح المنون،

هوين على صدرهِ.

مات جدّي لئلاّ يخونْ.

وصار لها الرّمسْ،

وأوراقهنّ لهُ

غدت

رداء المنون.

رنت، ذرفت دمعة،

وهبّت.

وفي ثوب قدّيسْ،

تجلّت.

على طرقات المصير استوت.

وخلف صليل حجارتهم زحفت، هتفت:

أنا الأرضُ،

شادية

على درب آذارْ.

ململمة

شجوني أزاهير نيسان.

وكادحة

على درب أيّارَ.

ساهرة في جراح حزيران.

أنا الأرض،

أرض النّبيّينْ.

فلسطينْ، ...

فلسطين أسميتْ.

إلى واحة القلب أهديتْ.

وفي روضة الصّدر أزجيتْ.

فلسطين مهدهمُ،

فلسطين حلمهمُ،

هتافهمُ:

سنفتح أبوابها الموصدةْ،

سنهتف دومًا ولن نتردّدْ:

فلسطين رغمًا عن المعتدي والعدى

فلسطين ضمّت إلى صدرها بحنوّ نبيّ الهدى أحمدا،

وما عشقت غيره قائدا.

# سنطوي الجراح

غدًا نعلن الانتصارْ،
ونرمي العدوّ بشهب الدّمارْ.
سنطوي الجراح،
نكلّلها تاج غارْ.
سنكسو فلسطيننا
رداء التّحدّي، وثوب الفخارْ.
ونمحو حروف المذلّة عن
جبين عروبتنا،
وننزع من ضاد أمّتنا،
ومن فجر حاضرنا،
ظلمة العارْ.
ونكسو مآذننا
وشاح الوقارْ.

فيا قدسنا لا تليني، سنضمد جرحًا نغارْ.

غدًا

سنحرق سفر هزائمنا،

ونخطّ حروف التّوطّد في عتمة الاندثارْ،

وتزهر في

مدامعنا

عذاباتنا،

فتنبت آمالنا دررًا ونضارْ.

ونغزل من دم أشهادنا

منارات نور، ونارْ.

ويا قدس كفّي ملامك لن

يدوم الحصارْ.

أيا

فلسطيننا لملمي

شجونك، واصطبري،

فإن طال ضيم الطّغاةِ،

وفي أرضنا استنسرت

صغار البغاث،

سيهوي الدّخيل ذليلاً

بهاوية الانهيار.

ويعلو صدى صوتنا

على مسمع المتجبّرْ:

يذلّ الذّليل، الزّنيم، البشارْ.

فيا أمّنا كفكفي الدّمعْ،

فلا بدّ من

طلوع نهارْ.

# اعتذار عن حبّ سرمديّ

عذرًا فأنا أحببتكْ،

وعانقت الصّمت خلف جراح انتظاركْ.

سئمت الرّحيلْ.

فأنا أبحر مذ وقفت على أبواب المنفى نحو شواطئ عينيكا؛

كي أستلّ الدّفء من نجوى قلبيكا؛

لأهوي شهيدة عشق على راحتيك.

لولاك لما خضت أشراك الحبِّ،

لا، ولا سرت تائهة أشكو عثرات الدّرب،

لا، ولما أزهر الزّنبق الوادع في أرض محيّايا،

ولما صارت أنفاسك تهدي إلى ركبانك ركبي،

ولما كانت لي أرض تجذبني من منفاي إليها،

وأجنّ بها حين مغانيها تخلب لبّي.

لولاك لما أورقت أسراب دموعي إصرارًا في ثراكْ.

لولاك لما صرت أشدو باسم الهيام النّازف حُبًّا ودما، يغسل عار الأمّة عن أفضية سناكْ،

ولما حلّقت أحلامي تبحث عن أسرار خلاصك في أبراج السّماءْ،

ولما صرت أبحث عن أخيلة مجنّحة؛

لتليق بأسطورة الكبرياء.

ولما صرت أحلم أن تحملني فوق براق الكلمات الزّخرفيّة،

أو فوق جناحات النّورس بين الثّرى والثّريّا،

أو فوق تخوم البحر على أمواج العصف الكانونيّةْ؛

ليصير لتيمي طعم الفداءْ؛

لأقيم هناكْ...

... في المحار، وفي اللّؤلؤ، بين أهدابك السّاحليّةْ،

في جوانح صدركَ،

أسكن في مغناها السّميَّ،

وأهوي في الأضلع الأرجوانيّةْ.

أذوي سابحةْ،

في انعطافات المدّ والجزر، في هرولات تضاعيف أسرابك البحريّةْ.
وأرنو إلى عينيك، وقد غرّقت حنيني في ومضات سيوف لحاظك دافئة وسخيّةْ.

هلاّ أنصتّ لشكوايا،
ومسحت الدّمع، وأسكنت الأشواقا.
سماؤك ظلّ لأظلالي،
وهواؤك فجر يكاد يضيء سنا برقه، فيحطّم أغلالي،
وظلالك مهد لأوصالي.
وهي العبق المشرق من نور إلَهه، يسري برحيق الرّوحِ.
أفلا كلّ ما أرمق فيك يغدو في ناظريّ يلوحْ؟
وبحرّ الشّوق يفور لهيب الجروحْ؟

فلعلّي أبلغ أسباب وصلك، حين تعانق عيناي نخيلك الفاره،
مختالاً على ما اعتلى من كلّ الصّروحْ.
ولعلّ عبير مروجك في أمسيات الهجر يظلّ يفوحْ.
ولعلّي أشتمّ من منفاي بريق الهدى المذبوحْ.

وألا ليتني يوم لا تدري نفس في أيّ بلاد تموتْ،

لا أموت بغير ميادين أراضيكا.

ألا ليتني نجم لا ينضب نوره، حين تعود النّشوة روحًا، تحلّق

في مضحاة أماسيكا.

وألا ليتني أمواج الهواء البحريّ فوق غيوم روابيكا.

وألا ليتني تبر، ينبت فيه زهر أمانيكا.

وأنا وطن الكلمات الّتي أشرقت في ضواحيكا.

وأنا غضب في قصيدة وهن، ربّيتها حرفًا حرفًا لقوافيكا.

سأصير زفير أناك.

سأصير بريق سناك.

سأصير نسيم رباك.

سأصير طريق لقاك.

سأصير أناك.

سأصير إليك.

سأطير إليك.

سأروح إليك.

سأجيء إليك.

سأكون إليك؛

لأصير شذا من زهر رباك؛

لأصير أريجًا من دفق قطر نداك؛

لأصير براعم ورد مهوّمة، تتفتّح من ميد سكر صَباك؛

لأصير أناك.

هل أصير إليك؟

هل أطير إليك؟

إنّي أتسلّل نحو مراكب عينيكا.

وسأجنح أجنحة الرّيح؛ كي تجنح سفني في جوى ساعديك.

ما كنت لأركب فوق جناح سفر.

ما كنت لتحملني الطّرقات إلى صخرة في الجبّ،

وأقاد لقافلة من مصر،

وأباع بلا ثمنٍ،

أو برقصة علج من الغربِ على تغريبة شعب.

ما كنت لأركب فوق جناحات طير،

لولا أنّهم ضيّعوني في طرقات تجاويف القدرِ.

آه ما أشدّ حروف القدر!

آه ما أشدّ عبوس القدر!

آه ما أمرّ صنيع القدر!

آه ما أوهانا، حين نقاد بعزم إلَه للقدر!

ما زلت أفتّش عن نور الشّمس الثّاوي في ليالي الغسق المدنِفة.

أفأرمق نور الفجر، يحطّ على أفضية الأسداف المسدلةْ،

في مراسي ساحلك الأبديّ؟

وطني، يا وطن الأحرار، والحلم العندمي.

# لنورك سيزيف يمتطي السّحاب

(إلى الشّهيد "أبي عمّار")

يا ذا الرّاحل التّموزيّ،

ماذا دهاك؟

أيّ ناب من أنياب الدّيسم بالسّمّ براكَ؟

أيّ قوس ضالّ خؤون، في ليل أقوس صبًّا، سدمًا،

مقروح الجفن رماك؟

ألقم وحش الغاب مهجتك الغضّةَ؛ إذ ألقمته شهدًا من نهار صباك.

وخطوت بإصرار خطوتك الحلالا،

مذ حملت الصّخرة ترفع أنصابه فوقها،

وذرعت جبال الشّقاء بخطو الواثقِ،

لا تثنيك براثن غدّار.

وثنيت هواجسه،

ونكيت دسائسه،

وفضضت مجالسه،

وسكنت الذّرى، واعتليت التّلالا،

تحمل شعلة مجدك.

واحترقت ضياء؛ لتشرق شمس لواك،

وانصهرت سخاء؛ لتسطع شمس لواك،

وامتددت فداء؛ ليزهو وهج الفتح المبين فلسطينيًّا،

يتسقّى الدّم من ينبوع نداك.

وانتصبت وثوقًا يا عنقاء الرّمادِ،

وسمّرت الصّخرةَ،

والعالم يرنو إليكَ،

وعشّاق الأرض يرنّمون الوعد الدّاميَ خلف نشيدكْ.

يعِدون بجرحهم النّازفِ،

وبأرواحهم المكلومةِ،

بسواعدهم ينبت منها النّخلُ،

ويتفجّر فيها الطّلعُ،

براحاتهم تنثر في الكون رصاص الدّمعْ.

يهبونك أرواحهم، وتضمّ إليها روحًا، هي روحك الأسطوريّة.

تتقدّمها، وتقدّمها للهِ،

والوطنِ،

هبة دمويّةْ.

وتشيد بطول عنانك أسمى سماك.

ويرنّم عشّاق الأرض لحن البقاءِ:

سيزيف تمهّل... سيزيف تمهّل... سيزيف تمهّل...

سيزيف ترجّل... سيزيف ترجّل... سيزيف ترجّل...

سيزيف تعجّل... سيزيف تعجّل... سيزيف تعجّل...

والصّدى يرتدّ: تقدّم... تقدّم... تقدّم...

وأبيت إلاّ أن تسمو في هواك،

وأبيت وما شئت إلاّ أن تكبر في مناك،

وأبيت وما شئت إلاّ أن تعلو في سماك.

وعرجت إلى الذّروة،

والصّخرة تستلّ أنفاسها من صدركْ،

وأنت تسلّ زفيرك من جوف إرادتكْ،

والقمم الشّماء تزغرد، وتبارك وهج خطاك.

والسّفح يناجيكَ، والرّيح تعوي،
وتغقّ صقور الوادي،
والأفاعي تفحّ، وتلفظ أنفاسها المسمومة في كلّ مفعاةٍ،

وتسمّر جسمكَ، وامتدّت يمناكَ؛ لتطلق طلقتها الأولى من أحشاء كانونَ في عيد التّكوينِ، وأشجارهُ رقصت جذلا في ساحات عرس الثّورة، عاصفة تعصف عصفًا بسناب عداك.
في يسراك ترنّح غصن الزّيتونِ،
ولفّ العالم أنظاره صوبك،
وفلسطين الولهى صارت باسمك الجبليّ تجوب الكونَ،
وتسعى، وأنت متيّمها نحو مسعاك.
والعالم يشرق من نوركَ،
والشّمس خبا نورها مذ أضاء سناك.
وصبوت إلى العلياء،
وعدوّك للدّركةْ،
ونسجت حروف المجد فلسطين كوفيّة،
ترمق الأفق بعيدًا، وتراه قريبًا، وترى الوطن قطوفه

دانية، وجناه خصيبا.

وتلوّح للقدس فجرًا يضيء محيّاكَ.

وبقيت مخلّصها تدفع عنها المعتدي في كلّ عراك.

ورحلت،

وامتطيت السّحابْ،

وظللت تحلّق فوق الذّرى،

والطّير انفضّت أسرابها،

والعصافير صارت تندب،

والأشجار تشقّ عقائلها،

والخيول تباري فرسانها،

والبنادق تقذف أهوالها،

وتئزّ أزيز العاشق،

تطوي مشوار الأملِ؛

إذ رحلت وصيّرت الدّمع بحر ظلام،

وتعالى النّوح، وحلّ في مغناك.

يا ذا الرّاحل السّرمديّ،

في الأكوان ضلّت مراكب، واسمك كان منجّيها.

في الأكوان تاهت لنا أرض، واسمك كان هاديها.

ولركب قدته أمسى حاديها.

ولدرب ردته أطفأ نار الهجر، وصارت مواكبه جنّة الخلدِ؛

إذ أعطى الله القوس باريها.

في الأكوان علت أسماء، واسمك ظلّ عاليها.

وفلسطين تجوب الأرض خلف ظلالك قاصيها، قبل دانيها؛

إذ كنت الغلاّب، فلسطين تباري خطاكَا.

وكنت الكدح، وكنت الصّرح، وكنت الغدو، وكنت الرّوح، وكنت الصّدح، وكنت الدّوح،... ، وكنت...

وكنت...، وكنت... الفتح، وظلّ الموطن يعلو، ويعلو، وكنت له تصبو من سماء علاكَا.

وكنت الصّبير، تروّي الأرض، وكانون يسقي غراس الثّورةِ.

كنت الصّبير، وما هزّتك رياح،
والذّرى تتنسّم طلّ الفجر المزهر من ريّاكَا.

وكنت الصّبير، تزفّ الأرض لك الشّعب فوق روابيها.
كنت اللّيث، تردّ الضّيم، وتزأر في وجه أعاديها.

في يمينك تنتصب البندقيّةْ،
فينبت غصن الزّيتون معْ كلّ رصاصةٍ،
فيضيء الفجر سماء نواحيها.
وتحطّ الحمائم صادحة، والدّمع يقرّحْ
مآقيها.
وحبوب سنابل حلّت في بيدر بزّتك الزّيتيّة،
تذروها الرّياح، فتنبت آلافًا، وتبرعم أيّامنا المجدبة العجاف،
وتزهرْ
صحاريها.

أيّها الصّقر المتعلّق في أجفان الفضاءْ،

انثر الدرّ رصاصًا يحيي العهد في أكناف مرابيها.

أيّها الصّقر المتعلّق في أجفان الفضاءْ،

نم قرير العين، صريع الهوى، والذّكر سيبقى يحييها.

وفلسطين على خطوك تمشي،

ويمتدّ الغضب الآتي،

يمتدّ، ويشتدّ...

يشتدّ، ويمتدّ...

ويشتدّ، ويشتدّ، ويشتدّ...

يمتدّ، ويمتدّ، ويمتدّ...

في وجه باغيها.

وفلسطين ترعى الحلم وترمقه ،

وتربّي الورد وتحرسه بدموع أمانيها،

نم قرير العين، صريع الهوى، والذّكر سيبقى يحييها.

# نشيد الوداع

(إلى الرّاحل محمود درويش)

في ليالٍ ظلماء، استلّ منها الغريب البدرْ...

هاموا يمخرون عباب الدّياجي،

يستجمعون خطاهم، وينتظرون الفجرْ،

يسألون النُّور، ويرجون النَّور في صحراء الغدر.

في غياهب أيّار، في سنة عجفاء،

هبّت أرياح المغول الذّارية العاتيةْ،

سلبت أسرار البحرْ.

فتّتت أسراب الحمامْ.

طيّرت أعشاش البلابلْ.

أحرقت أحضان الأمومةْ.

أذكت أعناق السّنابلْ.

خنقت أنفاس الطّفولةْ.

سجنت أحلام الكهولةْ.

أسقطت أنصاب العروبة.

في غياهب أيّار في سنة عجفاءَ،

جثت أقدام المغول على صدر أنفاسنا،

وامتطوا أعناق الخيولْ.

دقّوا لعروشهمُ

ألحان الطّبولْ.

سلبوا ميلاد الأجداد الأوّل،

أطفأوا ميلاد حضارتنا الآخِر،

حاصروا خطوات الزّمانْ؛

ليعودوا منّا أجنّةْ،

من نسلنا، من سلالة كنعانَ،

لكنّ كنعان يحمي حدود الزّمانْ،

ويسيّجها بالفضّة والأرجوان،

وخطاهُ ها هي، تضرم غابات السّنديان.

سبحان الّذي أسرى بالنّبيّ محمّدْ،

فشبّت خطانا، تُشرَبُ ترب القدسِ، وتمتصّ صخر البلاد،

سبحان الذّي أسرى بالنّبيّ محمّدْ،

عبثًا تصنعون مخاضًا في رحم هَذا المكان،

من أين قُذفتم إلى هَذه الأرض، يا زبد الأمم الهالكةْ،

يا بيت قصيد هجائيّة الطّغيان؟!

في غياهب أيّار في سنة عجفاءْ،

جاؤوا؛ إذ أضحى عصفورًا كلّه أجنحةْ،

يعشق اللّحن والأغنيةْ،

ويسافر فوق النّسيمِ،

يعدّ النّجومَ،

ويلقي بها في صحارى الظّلامِ،

يلـمّ الفراشـاتِ، يـصبغ ألوانهـا بنـضار الـشّمسِ، ويقفـز فـوق البيـادر،

خلف الحقول، يباري الأنجم، يرمي ظلّه وسط السّحابْ،

ويخبّئ كرمته في فؤادهِ، يحرسها من عواء الرّيحِ، ومكر الثّعالبْ،

ويعانق حبّات البرتقال النّديّة،

ويذرف دمعته السّحريّة؛
لتمسي ياقوتًا في ليلة صيفٍ
ساحليّة.

جاؤوا؛ إذ أضحيت شبلاً ينسج عرش طفولته بأزاهير الأقحوانِ، ويغزل من شفق البحر إكليل عرس للوطنِ.
وعشقت البحر تضاحك أمواجه، تتأرجح، تمشي فوق الغيومِ،
ويحكي لك الموج عن رحلة السّندبادْ،
عن بحارٍ كثيرةْ،
رمته الرّيح على قرّ شطآنها...
وحفظت الحكايةْ،
وأشجتك أحزان السّندبادْ.
وكرهت البحرَ،
كرهت المراكب تنزف آلاف اللّاجئينْ،
وكرهت المرافئ تجزع من لجّة النّادبينْ،
وذرعت المسافاتِ تعدو،... وتعدو،... وتعدو،... ... ... إلى صحراء المجهولِ.

أعددت المفردات؛ لتنعى عذاباتك القادمةْ،

وبنيت المجازات تنعى انكساراتنا الكامنةْ،

ونقشت على جدران الزّنازينِ: "سجّل أنا عربي"،

وحفظنا اسمك العربي،

وغدوت اسمًا، وغدوت بلا لقبِ،

وتحدّيت السّجن والسّجّانَ،

فللّه درّك صِنديدًا يا أمير الفرسانِ!

كيف أشعلت في الرّوح الحرّى فورة العصيانْ،

ونفير الغضبِ؟!

لله درّك صبًّا يا شاعر العرب!

وحفظنا اسمك العربي،

محمود حفظنا اسمك العربي،

درويشُ حفظنا اسمك العربي،

وغدوت اسمًا، وغدوت بلا لقبِ،

وغدا السّندباد قناعك يا أحمد العربي،

وحملت رفات البروة تبنيه فوق خريطتها،

طفت تجرع سمّ الرّحيل، وتبكي أشلاء الشّهداء بدمع هتونٍ،
وتهديهم من كلّ العواصمِ ماء الوريد من القلب للدّربِ.
في تونس أزهر دمعك وردًا، وأنبت حَبًّا، وحُبًّا في مقبرة الشّهداء،
وتجرّحت شوقًا، وأنت جريحٌ يا أكبر الشّعراء.

في كلّ العواصم طفتَ، وما عانقت عيناك ثرى القدسِ،
والبروة في كلّ عاصمةٍ كانت تتجلّى، ومن كلّ عاصمة تشتهي لون
حنطتها، والكرمل يعلو، ويعلو، ويعلو، ... ... ... ... كلّ الذّرى،
حيفا غصن بانٍ لا ينحني،
كفر قاسم غابات نخل لا تنثني،
عكّا تطرد الغاصب عن أجفانها،
وتشدّ البحر لأهدابها،
وتصلّي ضارعة خلف ظلال الرّاحلين،
طبريّا تمدّ البحرْ
بسفين الخلود،
وزوارق يافا العتيقة تحرس صوت الفدائيّين،
وترنّم أنشودة العودة.

في بيروت صار طريق الوطن

أدنى،

صار طعم الفداء أمرّ، وأحلى،

في بيروت أطللت يا سندباد على التّجربةْ

الجارحةْ،

والمؤامرة الفاضحةْ.

في طروادةَ اختطفوا في عُرض البحر المراكبْ.

في طروادةْ،

أورق الصّبّار، وأضحى ظلّك مستعليًا،

وتبادلت الأشعار الألحانَا،

ولغرناطةِ القلب منك مديح الظّلّ العالي،

ومنهم رعافهم الغالي.

وحفظنا اسمك العربي،

وحفظنا اسمه العربي،

درويشٌ والقاسمْ

يغزلان مواويل الثّورةْ،

يرصُفان أزقّتها بالنّشيدْ،
يجمعان القلوب بدمع الرّسائلِ،
بين "انصرفوا"، "وتقدّموا"،
لحن الانتفاضة، والموعد الآمل،
يتصدّى لوهم الأباطيل الآفلْ.

درويشٌ حفظنا اسمك العربي،
أبصرت الغد بعيون اليمامةْ،
وتراءى لك المشهد الغرناطيُّ، قلّبت سفر الأندلسِ؛
لتخطّ وثيقة مستقبلنا،
موصلاً ماضيها بحاضرنا،
مؤمنًا أن لن يصدق وعدًا يومًا عرقوبُ.
فسبحان من أنجز وعده!

وتبصّرت سرّ الزّمن،
بأنامل واعيةٍ، واثقةٍ، حالمة.
من حضن السّاحل أشربت سمّ الرّحيلْ،

حين ودّعت الأصدافَ وملتَ على أكتاف اللآلئ، واحتضنتك الرّمالْ،
وتركت الحصان وحيدًا، يبكي الصّهيلْ،
وهززتَ جذوع النّخيل،
وتساقط جمر القنابلْ،
وهوى القتلى فوق كلّ قتيلٍ قتيلْ.

وتجهّمنا الأمنياتِ، وأضحت جهامًا في دنيا المستحيلْ،
وحلمتَ، وكان الحُلم أشدّ من الألمِ،
وحلمتَ وكانت رؤياك لا تشبهْ
معنى النّدمِ،
وحلمتَ وكان الحلم نقيضًا للعدمِ؛
إذ كانت عكّا بيت قصيدْ،
والقدس وحيفا عنوانًا للنّشيدْ،
ورفضت الحصان الطّروادي، رفضتهُ محشوًّا بقنابل عنقوديّةْ.

ورجعت شجيًّا، كما عاد المتنبّي من أرض العربِ؛
إذ ظلّ الحصان الأيّوبيّ مثالاً يضرب في كلّ الخطبِ،

فنًّا وتراثًا للطّربِ،

ومرامكَ لم تصبِ.

وتفرّقت الأصوات، تحشرجت الكلمات، وضاعت غنائيّة العودة الاختتاميّةْ،

لم نهزج، بل أعددنا للموت التّرفيّ بكائيّةْ.

درويشُ حفظنا اسمك العربي،

واحترقتَ شموسًا، تضيء مسيرتنا الملأى بالمتاهاتِ،

واحترقنا شموعًا، تضيء مسيرتك الملأى بنشيد المجازاتِ،

حين انطوت في آب السّنابلْ،

وتساقط زهر اللّوز

من أناملك الحالمةْ،

وتناثر يطوي لهيب الدّموعْ.

في آب همَى دمع قهوة أمّكْ

خجلاً من لظى وجنتيها،

في آب انحنت أشتال الزّنابقْ،

في آب جثت لك أنصاب المجد إكبارًا،

في آب تكسّرت الأرماحُ،

وانتصبت هام البنادق.

في آب ارتدت أشجار السّروِ ثياب الحداد،

واختفت خضرة التّين والزّيتون.

في آب اختفيت، وما عدت قبل الغياب

من جحيم الغياب.

درويشُ أمتّ، وأنت الأخضرُ فينا، وأنت الخصب، ونظمكَ نبعٌ يروي حواشينا؟!

درويشُ أغبت، وأنت الحاضر فينا؟!

أيئست، وأنت الصّلب، وأنت الإرادة فينا ؟!

لم تجد ولدًا ضارعًا يدعوك: أبي،

فحسبنا الخلود التّناسل في ذا الوجود،

ووجدت العالم يلتفّ حولك يدعوكَ.. يا شاعري:

الخلود هو الإبداعُ، وليس التّناسلَ، ليس الغنى في الوجودْ.

فلنا من شعرك صورة هذا الوطنْ،

ولنا منه رائحة الخبز، والزّعتر،

ولنا منه طعم السّنابل، تخضرّ في حضن البيدر،

ولنا منه ما هو أبهى وأنضر،

فلنا منه تاريخنا، تاريخ قضيّتنا الأعسر،

وإليكَ نشيد الوداعِ،

إليكَ ترانيم القلب الصّادي،

وإليك الحنين الأبديّ.

وإلينا صدى روحك السّرمديّ.

وإليك نشيج الصّدور المتقرّحة.

فسلام عليكْ،

مذ ولدتْ،

حتّى صرتَ شاعرنا، وفقيد حضارتنا الأكبرْ.

فسلام عليكَ، سلام عليكَ، سلامٌ عليك... ... ...

# بيت المقدس في حيرة الصّمت

القدس في الأصفادِ، ترنو للحياة بحيرة الصّمت المسمّر في شفاه جفونها،

وتكدّس الأسماء أعرقها، يبوس، وأورسالم، إيلياءَ، تحيكها ثمرًا يلوّح سرمديًّا فوق نور غصونها.

وتمزّق الأسماء أوهنها، وأفجرها،

صهيون أرذلها.

وتعانق التّاريخ، تسكنه، ويسكنها، تسطّره مدادًا يمحق الأوغاد في زمن تفيق به بنات الألبِ،

ومواطن الأسرار والأضغانِ.

نمضي مهطعين إلى صلاة متونها.

تتدفّق الآهات، تشعل جرحها المترامیا.

ترجو النّجاة وفي زمان الذّلّ تحتضرُ،

وعلى لهيب الصّمت تنتظرُ،

وبراثن "الأرغون"، و"الهجنا" بأضلعها السّقيمة تنتشرْ،
وبرازخ الدّيجور في الجسد المهلهل تستوي، وأوارها يسري، ويستعرُ،
والشّمس ينضب نورها، يمتصّه طوق الجدار المعتلي،
وإذا سنت أنوارها تزورّ عن شرفاتها المتضوّرةْ،
تهوي أشعّتها، تغور بظلمة المستوطنات السّامقةْ،
ويغيب ضوء نهارنا،
وتظلّ تضطرم الغوائل في لظى المستوطنات الضّاريةْ،
وتظلّ تضرى ضاريةْ،
وتظلّ تضرى ضاريةْ.

القدس في الأصفادِ،
هل تصغي لأنّات العذاب تمور في أحشائها؟
لبكاء مهجتها يثير الصّخر في أفيائها؟
لجنون ليل غافل يغطو، فيصرع صبحها؟
أفلا ترى النّازيّ كيف يفتّت الأشلاء صمتًا، يختفي بضجيجهِ؟
لا شيء يبقي لا يذر.
أفلا تراه كيف ينفث في الرّماد، يبثّ فيه روحه المتردّيةْ؛

ليشيد من أرض البداية هيكلاً متزلزلاً، متهلهلا؟

من صولة الخطّاب، من مسرى النّبيّ محمّدٍ،

حيث البراق علا،

وعلا يرفرف في المدى،

يرنو لقبلتنا، يزفّ لها الجدا والسّؤددا،

والصّادق الهادي يرتّل سورة الإسراءِ ليلاً، ضارعًا، ومسبّحًا ربّ العباد الأوحدا.

حيث البراق علا؛ لينثر درّ أضواء الهدى،

نورًا إلهيًّا مبينًا سرمدا.

القدس في الأصفادِ،

تلك قلوبنا عبر المسافات البعيدة في مراكب حبّها تتدفّقُ،

والدّمع أحمر في

أهدابنا المتفتّلةْ

يترقرقُ،

صلواتنا، دعواتنا في القلب حيث الوجد صبًّا يخفقُ.

لكنّ صورتها من الأنظار ظهرًا تسرقُ.

وتغيب حين تلوح أشجار من الزّقّومِ،
طلع نحورها مغوٍ لشيطان رجيمْ،
هي أمّة غيّانة، مهزاقة، وكأنّها لا تهزقُ.
موبوءة بهراء شعب مصطفى،
أوَ يصطفى، وهو المتبّر والنّزقْ؟!

القدس في الأصفادِ،
أين قبابها؟
أفلا يطوّق طوقها جيد الجدار المعتلي؟
بل أين مسجدها الطّهور؟ وأين منبرهُ؟
لا شيء في القدس العتيقة يشبه الماضي السّنيّ،
لا نغمة التّرتيل، لا
لا صيحة التّهليل، لا
لا صرخة التّكبير، لا
لا زفرة التّحميد، لا
لا البسملة،
لا السّبحلة،

لا الحوقلة،

لا الحسبلة،

يسري صداها الحرّ في جبل المكبّرِ،

في مدينتنا البهيّةِ، في ضجيج السّكْرِ.

في القدس تُرفع كلّ أصوات البشرْ،

إلاّ الأذان على منابرها تحشرج، واندثرْ.

في القدس تطلق حرّة كلّ اللّسن،

إلاّ رنيم لساننا العربي،

لقد انطوى، وجشر،

والحرب ضدّه منذ وقت الغزو ظلّ حديثها المأفوكِ في كلّ المحافل يعتور.

القدس يُصلب فاتحوها في دروب الانكسار،

فوق المنابر، في القباب، وفي المساجد، في الشّوارع، والأزقّة، والمهاوي،... والسّجون.

فوق الجبال، وفي المشافي، في البيوت، وفي الصّدور، وفي الحناجر، في الحلوق، وفي المآقي،... والعيون.

عند القيامة، في المحاريب الأسيرة تشنق الأعراض،... في فيء الغصون.

في القدس صلّى الوغد في محرابنا.

في القدس في مسرى النّبيّ محمّدٍ صلّى التّتار كما نصلّي، حيث نرغب أن نصلّيَ، في مدينتنا سبا السّيّاح جدّتنا اليبوسيّةْ،

نحلوا هويّة ثوبها المنقوش باللّوز المعتّق، والحصى، والأغنيات الأرجوانيّة،

نصب الغزاة له المقاصل في بيوت مجونهم،

شربوا النّبيذ على صلاة أنينه في ليلة خير،

من ألف شهرْ،

في ليلة القدرِ.

القدس في الأصفاد، تستجدي قلوبكمُ.

القدس قلب الأنبياء، يبايعون المهتدين على دروب بقائها.

لا تكسروهْ،

لا تهدموهْ،

لا تصلبوهْ،

لا تذبحوهْ،

لا تحرقوهْ ،

لا تقلعوا ركب الحضارة في دروب بنائها منذ الأزلْ،

وإلى الأبدْ.

لا تقلعوا قلبًا لخالقه اهتدى، ورشد.

القدس لم أرها، ولكنّي رأيت جراحها،

حدّقت فيها في منامي،

أبصرت عيني براق نبيّنا مستلقيًا، ومضرّجًا بدمائه،

ومهنّد الفاروق كان مثلّما، دنفًا، لا

يكسو السّيوف على الزّمان مضاءً.

وحصان حطّين رأيت دماءه تهرورقُ،

وتدقّ منشم عطره؛ لتبيعه للمنتنين من الأنامْ.

أمّا المفاتيح العصيّة فانحنت هاماتها لقطيع بلفور الطّغامْ.

ورأيت مريم تخصف الأوراق يائسة على سوءات أمّتنا،
تهزّ جذوع زيتون الجدود المنهوي؛ ليشدّ خاصرة الثّرى.
والمجدليّة تلطم الخدّين، تذرف دمعها، تنعى القيامةَ،
تلقط الفينيق من عصف الرّمادْ،
والرّيح تذروهُ، وتجعله رفاتًا، يستحيل الانبعاثْ،
ويضيع حلمهم البريء، يغور في رسّ الرّتامْ.
وابن البتول رأيته يمشي على الأمواج، والطّوفان يعلو، يغمر الأمّةْ،
وسما يناجي خالقهْ
فوق الغمامْ .
أمّا يهوذا، فهو كان يدسّ سمًّا ناقعًا للمنشدينْ
بمواسم الفقراء في عيد الحياةْ،
ويعلّم الأحرار كيف تشاد فوق الأرض أغنية المحبّة والسّلامْ.

يا سادتي وأحبّتي،
يا أيّها السّدرون في مغواتكم،
يا أيّها المتبعثرون على دروب الانسحاقْ،

يا أيّها المتمرّدون التّائهونْ،

يا أيّها المتوقّدون على المدى،

يا أيّها المتمزّق المذروّ في عصف الرّياح،

لملم ذواتك واتّحدْ.

واغمس شجونك في إدام الصّبر في زمن الهراءات السّميلة واتّقدْ.

فلذات بيت المقدسِ

تستنجدكْ،

جبل المكبّر، عين كارم، دير ياسين، الّتي تروي حكايتها عجوز من بني كنعان في السّبعين من أحزانها، قرأت حكايتها، وقد نقشت على أهداب صخر غارق بشذا الدّم المغرورقِ

بنثير حبّات الجمان.

يا أيّها الفادي الوفيّ،

صوّب خطاكْ،

شُدّ الرّحال إليها.

القدس فينا تسكنُ،

وقلوبنا في ركبها تترنّحُ،

فلعلّنا نرقى إلى أسباب غايتها،

ولعلّ شبلاً واثق الخطوات من أشبالنا الأحرارِ

يرفع راية الحرّيّة الحمراء يصبغها

بالأرجوانْ،

ويلوّن الغد خافقًا في لوحة الأفق السّماويّة.

# رسائل فوق التّلال

هناك وقفت، وظلّي الغيوم،

وقفت حطاما،

غرقت هياما.

هناك وقفت على تلّة

بعيدةْ.

أعيد إلى ناظري سفر تكوينها المتلاشي إلى الذّاكرة.

رفعت حنيني إليها سلالم.

رصفت دروبي جراحا.

بنيت جراحي، وشوقي إليها منابر.

نصبت جفوني خياما،

وصارت خيامي مقابرْ.

. . .

هناك وقفت على تلّة

بعيدةْ.

رسمت حروفي على صدر غاصبها

خناجرْ.

تركت هيامي رسائلْ،

تحلّق فوق التّلال كطير كليم.

حملت شجوني، وأقسمت طوعًا بأن

أقاتلْ؛

لأنّكمُ

تعرفون؛ ... لأنّي...

تركت الكواكب غارقة في بحار الحتوف.

تركت الدّوالي

تحنّ لشهد القطوف.

تركت وجودي سبيًّا كطعم الصّروف.

تركت أناي، ورحت أطوف بليل غضوف.

تركت محلّي سرابا،

وأسرار بيتي خرابا،

وظلّ اليباب يبابا،

وظلّت بلادي سبيّةْ،

إلى اللهّ فيها أسوق المتابا.

. . .

هناك وراء الفضاء البعيد،

تركت وجودي،

وشمسي هوت والقمرْ،

واللّيالي تعسعس، والذّئبُ،

والصّبح لا يستطيع التّنفسْ،

وتعوي صغار الدّياسمْ،

تطوّف في

حناجرنا،

وتنهش أكبادنا،

وتجري بأجسادنا،

تمدّ الخطى في جماجمنا،

تمور اختيالا على الكائنات بأحشائنا،

وتمتدّ في صديد الحلوق.

. . .

وطال الطّريق إلى ساعديها،

ونيّف أعمارنا في سجال الحياة.

وخلف زحام المنافي اختفت،

وظلّت تلاحق أطيافنا،

تكبّل أقدامنا،

تتوسّل درب الخلاص الّذي

نما في خطى ابن البتول.

. . .

هناك وقفت على تلّة

بعيدةْ.

غزلت جفوني لأشجارها

براعم.

وهبت دمي للشّموس المدلاّة فوق الغصون؛

لأروي

الكروم الّتي لفّ أعناقها

غبار الدّروبْ؛

لأحرس أضفارها،

وقد بعت كلّ الضّفائر من أجلها.

وبعت سباتي،

وعاهدت ألاّ أخونْ.

عشيّة تاه أحبّتها، وقد انتزعت منهمُ،

وهي وسنى، وقد أخذتهم سنةْ،

أغرقتهم بنار الخطوبْ.

فمدّوا خطاهم إلى ظلمات الشّجونْ،

وعبر صحارى الضّياع، وفي ليل أيّار أقسى الشّهور...

... وغابوا

... ولفّتهم الطّرقات البعيدةُ... وابتلعت

جسومهم الرّيحْ

وصارت تردّد نشج صلاتهمُ،

وأصداء أصواتهمْ:

رحيـــل...  رحيـــل...

رحيـــل...  رحيـــل...

دمـــاء تئـــنّ...  دمـــوع تسيـــل...

رحيـــل...  رحيـــل...

رحيـــل...  رحيـــل...

دمـــوع تئـــنّ...  دمـــاء تسيـــل...

دخيـــل...، دخيـــل... دخيـــل ... دخيـــل

يجيء دخيـــل...

يروح أصيـــل.

... ... ...

... وساروا إلى ...

سقر.

وفي كلّ منفى سقر.

ومن ذاق طعم سقر؟

وفي الطّرقات اشتروا كرة ذهبيّةْ.

وضمّوا إليها عيونهم الدّافئة.

ودّعوا رملها المترنّحْ

بأفئدة دامية.

وظلّ على مشجب في المخيّمْ

يعلّق مفتاح عودتهمْ،

والكرةْ

خلفهُ،

تحرّك عقرب أوقاتهم

إلى برتقال الوطن.

تذكّرهم

بمليون حبّةْ،

سبتها رياح الشّتاء الحصيبةْ.

وخطّوا بفيض دمائهم البرتقاليّ:

إليهـا،...

إلى أرض كنعانْ...

إلـــى:

صفـد...

إلى أرض عكّـا...

إلـى طبـريـا...

إلـى أرض حيفـا...

إلـــى النّـاصـــرة...

إلـــى أرض بيســـانْ...

إلـــــــــــى...

جـــــنيـــــن...

إلـــى طـــولـــكـــرم...

إلـــــى جـــبل النّـــارْ...

إلـــى أرض قـلـقـيـلـيـــةْ...

إلـــى كـفـــر قـــاســـــــم

إلـــى أرض يـــافـــــــا...

إلى اللّـد والـــرّمـــلـــةِ...

إلـــــــــــى رام...

إلى البرتقال الحزيـــن...

إلى القدسِ، مسرى النّبيّ محمّـدْ...

إلى ديـر ياســيـــنْ...

إلى القســطـــلِ...

إلى عين كـــارم...

إلى مهد عيسى المسيح،

إلـــى

دوالي الخليـل

وبئر السّـبعْ...

إلى الرّبعيّة

دورا

إلى الزّعتر المنحني

بها

لهامة ثائرْ

يقبّل ظلّهْ،

إلى صخرة

فتيّةْ،

ببئر سحيقةٍ

اعشوشبتْ

عليها سرائر باجسْ.

إلى ذا الهواء المحلّى بشهد العنبْ...

إلى ذي الشّموس يضاء سناها بقطرة زيت...

إلى ذي السّماء بوهج التّصوّفْ،

إلى ذا القمرْ.

إلى ذا الفضاء الملبّدْ

بخطو النّبيّينْ،

إلى ذي الصّور.

إلى كلّ ما

مضى

هنا أو عبرْ.

إلى

فلسطين سوف نعود.

عليها سنولد ثانيةً.

سنولد من رحم فردوسها المغتصبْ،

من تجاعيد أحلامنا الهرمةْ،

من ركام طفولتنا

المسجّى بأضلع بيت خوى،

على عرشه.

سنولد من مينة

لكم سرقتنا.

ونهتف: عدنا.

وننشد لحن الفدائيْ

بمعزوفة الطّلقات.

وطال الطّريق إلى مقلتيها.

وظلّت رياح الرّحيل تضوّع كلّ متيّمْ،

تذكّرهم بالرّماد الّذي من فتاته تولد ثورةْ،
وتنمو على جذع نخلة،
بزيتونة سلّها الوغد من صدر تربتها،
واحتسى الدّم من قلبها، واستوت واقفةْ.
فما اسطاع أن
يسلّ خشوع شذاها لأرض البدايةْ.

هناك رنت للغد الحرّ (أم سعدْ).
بحسرةْ
على الأمسِ زفّت
إلى الأرض من أضلع ضاويةْ
شباب الفدائيّ سعد.
مع الفجر زفّ، وسار وراءهُ موكبهم،
وكان الرّصاص هو الرّدْ.
وأمست حكايتنا مطلعًا
لكلّ قصيدْ،
وسرّ حنين لمجد تليدْ.

ولا

يزال الطّريق إليها تعبّده

الأناشيدْ.

# سلام على المسافر

وكان المسافر شمسًا.

وكان الرّحيل ظلامًا يضيئه فجر المسافر،

ظلامًا يغشّي السّنا،

وليلاً يغطّي محيّا السّما،

ويرسل أسدافه،

وأظلال حزن مسافرة لضمائرنا؛

لتحمل طيف المرحّلْ

لوهج الثّريّا؛

ليمسيَ نورًا أثيرًا على نورْ،

يضيء صلاح بصيرتهِ،

وسريرته المطمئنّةْ

بذكر الإله،

ونفس تعود لخالقها راضيةْ،

وراحته تقبض الجمرْ.

...

ويسري الظّلام؛ ليرسم شكل الرّدى في الغروب

ليرسمهُ:

خيوط بريق أخير،

فيهذي مغشّى عليه بصفرة شوق المدى،

وألوان طيف تظلّل ريح المنون،

بستّين حزن تبوح بهجر أخيرْ،

بزرقة أفق أسيرْ،

وصبح شريدْ،

وفجر بعيدْ،

ليأتيَ ليل هو الخافقان،

ويضحي البكاء صهيلا،

وأنت جواد، وسيف سليلْ.

...

بياض تموّج ثوبك، مخضوضرًا في ربيع وثيرك في الأبديّةْ.

رسمت لنا بسمة، عانقت ما وراء المدى الأرجوانيْ.

لحقت الّذين تحبّهمم،

وأبقيت واحدهم

وحيدًا كما السّيف فردا.

فدعنا نقبّل نور الهدى في فضاء الدّروب الوطيدةْ.

...

سواد تسربل ليلك يوم الوداع الأخير.

غيوم، خيال، ضباب، سراب، يباب، قتاد، سهام حروف الرّحيل.

لنبكِ اللّيالي،

وطول الوصال،

وعَوْدًا محالا،

غيابَ الرّبيع، ربيع الحياة.

لنغسلْ دموع الوداع بأرواحنا.

فمنّا إليكم قصيدةْ.

ومنّا إليكم صلاة،

وألف صلاة.

صلاة الفقير لعبد فقير.

وحزني صلاة،

وحزني سلام،

سلام أخير،

وداع أخير.

أيا راحلُ

كن قرير الضّمير،

قرير الأناة.

# موكب العلياء

يا موكب البلاد للعلياء سر،

حرّية الأوطان في ربيع أسمائكم المخضوضبةْ

تأتلقُ.

وشمسها تختال في توقّد على غزالة المدى،

وفي رحاب نورها تنطلقُ.

تنثر في السّكون أسراب النّدى،

وماؤه الخضل يروّي الأرض في سكينة ويبرقُ.

يا موكب البلاد للعلياء سر،

وفي سماء الفجر حيّ الأرض، والشّمس ومر،

منازل الدّيار في أكنافكمْ تخلولقُ،

وراية الضّياء من وقع خطاكم في سماء الوطن العاني بحزم تخفقُ،

ونور أحرف الهدى في متنها يستوثقُ.

يا موكب الشّباب للعلياء سر.

هذي الجبال الرّاسيات تنحت الأوتاد من ثباتكمْ،

وتبلغون طولها فوق تلال سعيكمْ،

وتعمرون الأرض في محراب إيمانكمُ،

وتضربون في بطونها، وتعلو هامكمْ.

تلك البحار السّاكبات دمعها

ما بقيت

عيونها

بدمعها المهرورقِ،

تغرورقُ،

ساعة قدّت حلمها الفتيّ منْ قُتاركمْ.

وفي ضلوع الموج سالت بسخاء أنهر انصهاركمْ.

تلك الدّماء النّازفات برعمت غصون برئها بماء صبركم،

حين طلبتم العلا،

وأزهقت أرواحكم سود اللّيالي بالسّهرْ،

والعلم كان شهوة لأجلها لذّت عذابات السّمرْ.

يا موكب الشّباب للعلياء سر.

فجرك طلاّع الثّنايا في دروب من برغو الباطلِ

يستكبرُ.

والآن أنتم تذرعون الكون وهْو خاشع مستغفرُ.

تعانقون ذروة السّحابِ،

تلثمونه

بالحلم في أعينكم،

بالسّهدِ في جفونكم،

والمزنُ منكم يهطلُ.

تحلّقون في فضاء الغد، في

رحابه طيوفكمْ

بالأغنيات الهاطلةْ

تبشّرُ.

وعطر آمالكم الفوّاح فوق منزل النّجم بمنزلهِ

يستبشرُ.

تقدّموا، فالغد في انتظاركمْ.

والحاضر الزّاهي بكم يزفّ للمجد صدى انتصاركمْ.

والتّين والزّيتون يخضرّ، وينتشي بحضرة الملائكة في

إصراركم.

وكائنات النّور أجنحتها

تحطّ رضوانًا بما يشيده بدُجنة اللّيل هوى أبراركم.

انتصبوا،

تمايدوا،

فأنتم الأعلون، حين زارت الملائكةْ

أروقة انتشاركمْ.

والجنّة الخضراء شقّت دربها لداركمْ.

تسربلوا أثواب فخر، يعلق المجد بها عشيّة اتّقادكمْ،

عشيّة ازّين أفق عيدكم بوهج "نون"،

بدمعهم يسطّرونْ،

باسم الإله يقرؤونْ.

أيا سفينة البلاد أبحري،

لآلئ البحر على متنك تنقاد إلى الأكفِّ،

والأكفّ لاحتضانها تصفّقُ.

والأرض والسّماء، والأزهار والثّمار، والأشجار والأحجار،

والجبال والوديان، والضّجيج والصّمت ... وكلّ كائن يصفّقُ.

هذي الجموع سافرت على ابتهالات قلوبها إلى دياركمْ.

هذي الميادين بأسماء دروبكم بلا هول ستضحي المبتغى.

سنابل البلاد من سرى لياليكم تعبّأت بألحان الحياةْ.

وحَبّها انحنى لربّكم خشوعًا وصلاةْ.

والنّخل في أكفّكم نما، وزادكم أناةْ.

واخضرّ في أهدابكم.

وطلعه ينضج في زهر أناملكم.

والنّفع تذروه الرّياح في ربى أوطانكمْ.

اليوم أكملتم صنيع دهركمْ.

اليوم أثمر العطاء الخصب في أحلامكمْ.

اليوم أسبغ الإله كامل النّعمى على آمالكمْ.

بورك زهر الكبرياء المتفتّحْ،

في سماء أنبيائكم

بورك حَبّ الحنطة المفلوق في بيدر راحاتكمُ.

بوركتم.

فالصّبر أنتم نَوْرهُ.

والسّقم أنتم برؤهُ.

والعدل أنتم ركنهُ.

والظّلم أنتم سحقهُ.

واللّيل أنتم صبحهُ.

والصّبح أنتم نُورهُ.

والغد أنتم روحهُ.

والوطن الحرّ بكم تأصّلت شريعتهْ...

والله أنتم حزبهُ.

# بأديم ترابه يحيا الإنسان

(إلى الشهيد غسّان كنفاني)

كانت عكّا تنفخ في كفّيها،
تتلو أحجية بأغاني النّورس،
تدني موج البحر من ساعديها،
تنقش في بطون الصّدف:
تبّت عينا من قذف الشّمس بنار السّدف،
تطرد أظلال الصّلفْ،
عن محراب صلاة عينيها.

وعلى أهداب الشّاطئ يافا تجلسُ،
تروي للموج سرًّا، تدفنه في شفتيها،
وجنون الخوف بمهجتها يُنبِسُ،
تخشى أن تأخذها سنة، وهي تلهو بأوتار ضفيرتيها.

عكّا ... يافا،

حول البحر في أغنية تلتفّان.

تجمعان الأناشيد والأغنياتْ،

تنسجان جدارًا حول السّديمْ،

تنثران العصافير؛ لتحرسا أمواجه من زبد يجتاح النّساءْ .

كلّ شيء في السّاحل أزرقْ.

كلّ شيء في الأزرق يترقرقْ.

كلّ شيء في المهجتينْ

بين سكينة وفزعْ .

وهناك تبرعم غصن ماؤه يحيا بالأزرقْ.

قلبه يخفق بالأزرق.

كان يَعُدّ صوت الحمامْ،

ينسج من هديله أنشودة للسّلامْ،

يبني أحلام الطّفولة في أعشاش اليمامْ،

ينثر قوت الحبّ فوق الغمامْ.

كان وجهه يرسم وجه الرّيح إذا هبّت،
والطّيور إذا غنّت،
والمروج إذا حنّت،
والقلوب إذا أنّت،
والدّروب إذا سدّت.

كان لا يفتأ يملأ راحتيه بعشق السّحابْ،
حتّى حملته الرّيح بأضراسها من أرض السّنابلْ،
ورمته بأرض اليبابْ.

... وهناك... تذكّر،...فكّر،... هبّ،... اهتاج، كما البحر حين تغشّى ثوب السّرابْ.
في أرض غزتها سروب الذّبابْ.
ضعف السّالب والمسلوب ساعة غلّوا ثوب السِّلابْ.

فوق الرّيح، فوق الإعصارِ توثّب غسّانْ،

وامتطى صهوة الثّائرِ،

فتّت جسد الخزّانْ.

رسم الأرض هادئة، هاجدة، شادية، تائبة، غاضبة، كافرة،...

فيها حمرٌ مستنفرةٌ،

فرّت من قسورةٍ،

بالحنظل تَمذق شهد الأوطان.

... ... ...

وتماهت كلّ الألوان،

وغدا الأزرق أرجوانيًّا،

وغدا الأرجوانيّ أسودْ،

ودمًا نزفت كلّ الألحان،

غسقًا نزفت كلّ الألوان،

في ريشة غسّان.

اشتعل الفنّ، تسلّق كلّ الجدران؛

ليصير نخيلاً، طلعًا، زهرًا، قمحًا، حبًّا، عصفًا، ريحًا، نارًا...

في قبضة فنّان.

كتبت بحروف النّزفِ:

بأديم ترابه يحيا وجد الإنسانِ،

في كبد الأرض تنبض مهجة غسّانٍ.

تَعِدُ الأرض بخنساوات، ينجبن عناقيد قرابينْ،

في الخصلة خمسون مليون قربانٍ.

ولدوا في ظلام الأزقّة، في ليلة عصف، في اختزال المنفى،

في أجسامهم كبرت صورة قفلٍ،

صارت وطنًا،

هجرت منفى.

أشرق فجر من حنين المنسيّينْ،

من حنين فلسطينيّاتٍ،

كنّ يغسلن الدّمع بضحكات الدّمْ،

ويضمّدن الجرح تلو الجرح بطلقةْ،

ويواسين البتر تلو البتر بقنبلةٍ،

والموت بزنبقةٍ.

كان غسّانٌ ينمو في سعد، ينبت نسرًا،
وهو يطير إلى الأفق المنشي خلف أراجيح الضّباب.
كانت أمّه تحمل أسداف المخيّم، تطويها في جيوب الوغابْ.
تغتال براثنها بصهيل رصاصةْ،
وأزيز توثّب خيل عرابْ.
ولدت في ليلٍ به اهتاجت في وكر الكون الذّئاب،
وترامى البعوض بكلّ مثاب.

ظلّ النّسر يحلّق...، كان يلمّ المنفيّينَ...، يشري أحلامهم الجريحةْ...،
يمدّ حنينه نحو جراح السّهولِ ... إلى أشواق الهضابْ.
يتلو في أسفارهِ:
"اقرأ"...
فطريق العودة "اقرأ"
ودروس العودة "اقرأ"
وخطى العودة "اسلك"
اكتب:
الثّورة علم الإنسان،

الشّهادة لحن الشّجعانِ.

أدرك غسّان

أنّ الموت لحن الحيّ إذا لم يكن منه بدّ لتعميد الأوطان.

ما مات، وفيه الموت يموت، ورمّت ضمائرهمْ،

وتسمّر فيها خطو الشّيطانِ.

ظنّوا أن قتلوهُ، وما قتلوهُ، وما صهروه، والحقد بأحشائهمُ

يتفجّر كالبركان.

ما زال يطارد خوفهم المجبول بنار الطّغيان.

# زفاف الرّوح

(إلى الشهيد ماجد أبو شرار)

حين تفتّحت الشّمس، ولفّت ربى الأرض بأسدالها الشّفيفة الزّاهيةْ،

سارا إلى الأفق، ينثران خطوهما المسدّدا

للرّيحْ،

يجمّعان جدائل النّسيم الشّذيّ،

ويرتقان أخاديد الجوى في المدى،

وفي فضاءات البعد السّحيقة، يذرفان هول النّوى،

ويلقطان الغيم من منابتهِ،

ويرصفانه في دربهما.

حلّقا، والبعد يطويهما...

قال لصاحبهِ، وهْو يحاورهُ:

الأفْق يا صاحبي رأيته مدنفًا في القيد، ينتحبُ.

والدّرب يا صاحبي أهوج يستأربُ.

والحوت يتّخذ اللّيل له مسربا،
وفي المنافي نمضي حِقبا،
فيها نحصد نار العذاب، نمتطي النّصبا.

روما تعلّق روحي في مقاصلها،
ونبض جفني من الأوطان يقتربُ.
وأرتقي في فضاء الرّوح، أنتصبُ.
والدّمع يغسل نزفي، وبه تغرق الأنجم والسّحبُ.
والطّير تحمل للغيم تراتيل الجرح بأشواقنا،
والجرح في الغيم يشتو رطبا،
يرميها الجمر والحصبُ.
والفجر في مسمعي يتلو نشيد الهوى،
وبي يطير حصان العائدين للحن أغنيات الصّدى.
رأيت أحلامي نقشًا مفاخرًا الدّمع بأيدي النّدى.
رأيتني، أضلعي تهزّها أظلال موجة صاردةْ.
رأيتني، بيدي أعصر خمرا،
والطّيور تأكل فوق رأسيَ الخبزا.

روما سبتني، وأهدت حلمي للرّدى.

روما تحمّلني انكسار ذاتي كعود سقم من ثقابْ.
روما تعلّق لحمي في متاحفها قربان منفيّينْ.
روما رمت للمسافرين في ركبها تقرّحات الحنينْ.
روما العذاب الأليمْ.
وهي طريق الهاويةْ،
إلى بلد الله الصّفيّ الأمينْ.

قال له صاحبهْ،
وهو يحاورهُ:
أضغاث أحلام، كيف تردّ بك الصّبوة والأملا؟
خصال مجدك في مآثر اسمك للعرب وطنْ.
ماجدٌ،
اسم محلّ في دقيق وصفك في تحدّيات الشّجنْ.
وعاؤك السّمح النّاضح مجدًا ، يعلو زحلا.
ماجدٌ،

شيمتك الشّرف الرّفيع يأبى أن يساوم الجدلا.
والرّيح إن أبرزت أنيابها خسّة لن تبلغ السّتلا.
وأقبح الإنس قولاً وفعالاً ما من عجب إن خزّوا الرّتِلا.
ماجدٌ،
والحسن فيكم قول طابق العملا،
وفي أواصره وحّدتم الوطنا.

وحين حطّت أحلامها في روما صدقت رؤياهْ...
وكان أنصار نيرون يعدّون خطو المبعد الواثقْ.
نيرون أشعل في المهاد نار المنونْ.
وضُرّيت في حلم المغتربْ،
نيرون عبّ كأسًا دهاقًا، وأصيب بنشوة الجنونْ
ظلّت نيران روما تقتات سنابلنا.
والحقّ نور لا يخفيه وَهْيُ الظَّنونْ.

خطا المرابط خطوتينِ، مدّ الخطى الحرّة للجوّ في فضائه الأبديّ.
أطلق أحلامه حرًّا بلا قيدِ.

أسكنه حلْمه مغنى النّجوم، وظلّ شامخًا في علاهْ.

أصيب صاحبه بالانكسار بلجّة الذّهولْ،

والهلاكْ.

سمّر أنظاره في زحمة الأشياءْ.

تهدّجت كلماته أسى حين قالْ:

أزفّ روحك يا صديقيَ المتجلّي في مراقي الفضاءْ.

أجهزت في بلد العبيد سابلة الرّوح إلى المنتهى.

مالي أراك مضرّجًا بلون الموتْ؟

مالي أراك مجدّلاً، تظلّك في العراء بضع نجيمات، وليل السّماءْ؟

وظلّ صاحبه، يخاطب اللّيل، والنّجم، وضوء، القمرْ:

في ليله سار ساربًا، يلفّ المسافات الطّويلة تحت أضلعهْ،

طاويًا مرتفعات السّرابْ.

صويحبي روّى الأرض بدمع السّحابْ.

وبالمنى أسكنوه الرّمس، بالأمنيات فيه حرًّا سكنْ.

وظلّ صاحبه يخاطب اللّيل، والغربة، والمنفى؛ إذ صدّق الرّؤيا:

روما جراح الوجودْ.

روما انكسار العهودْ.

روما اصفرار الأملْ.

هذا جفاف الوطنْ.

هذا لهيب الشّجنْ.

هذا عناد المحنْ.

روما المصير القصيرْ.

هذا سراب النّجاةْ.

هذا احتضار الحياةْ.

تصلّبت عيناه في فضاء الرّحيل، ممعنًا في الذّهولْ:

بيروت نضّدت الطّير جمانًا، يطوف فوق أغصان أرزها،

ومدّته موكبًا، يسير إليك حين تهبط من سمائك الورديّةْ.

وفلسطين تسمو لبروجك، ترفع التّراب الّذي فارقته مهدًا،

تخضرّ فيه السّنابلْ،

تنتشي باخضرارها الدّروبْ.
والخبز المرّ يحلو مذاقهُ،
ومرًّا يظلّ الدّم في شأوهِ.

دُورا تضيء مصابيح احتراقك في مسيرة الظّلماتْ.
دُورا تردّ الصّدى، محمّلاً بأناشيد البكى الحارقاتْ.
تنثر أضفارها باقات حزن في صروفها الكالحاتْ.
تنتعل الشّوك في اللّيائل الحالكات
دورا تحمّل أسجاع بكاء كرومها السّجوماتِ، للنّوارس السّاجياتْ.
تضمّ طيفك رابضًا بكفّيها.
دورا تشقّ جيوبها، وتلطِم خدّيها،
وقد هبّت،وأسرجت ليلا حصانك المنسيّ في فصول الهجرْ،
وغابر الذّكرياتْ.
تسربلت برد الحداد، وانتفضت جبالها،
وتأهّبت ملوّعة أزنادها القادحاتْ.
دورا تقلّدت البنادق الشّاكياتْ.
وأمّك الزّهراء تضرب الحزن السّادر في صدرها بنار قبضتها،

تهيم بحثًا عن بلاغ صوتك في غيابة الطّرقاتْ،
يعفّر القهر والأسى محيّاها،
تتيه في وجع اندثارها،
فاطمةُ الزّهراء
تغسل الشّجون بالصّلوات.

يا أيّها الصّوت السّابح في اليمّ، الصّادح في الفلك،
النّازل في أحشاء الأرض، فينا تمدّد، وتوحّد،
مرتّلاً حروف الصّمت، تاليًا سورة اخشعْ.
يا بن ذاك الجبلْ،
ما هنت في وطن مكبّل بالقيودْ،
مرصّع بالعهودْ.
وهل يهون البطلْ؟
لا، لن تهون بمنفاك، فحرب البسوس تستعرْ
كلّ عامٍ ألف عامٍ.
ويضطرم أوار الخصامْ.